المنظومة القيمية اللغوية في المجتمع الجزائري

أ.حمادوش نوال
جامعة فرحات عباس- سطيف-

ملخص:

نقترح من خلال هذه الورقة التركيز على التغير الذي مس القيم اللغوية من خلال رصد مختلف صور الأزمة والتيه الثقافي في المجتمع الجزائري.ذلك انطلاقا من اعتبار أنه إذا كان هنالك ميدان يحدث على مستواه ما يضمر أبعادا رمزية ذات طبيعة سوسيو ثقافية وهوياتية، فسيكون بالضرورة ذلك الحادث على مستوى اللغة. وعليه، يحاول الباحث من خلال هذا المقال: تجاوز الأطر السياسية أو الاتصالية للتفسير والبحث عن متغيرات ذات علاقة بالتفاعل المعقد الذي يتسم به واقع الفضاءات الفرعية الحاضرة ضمن المشهد اللغوي الجزائري.

Résumé :

Nous proposons a travers cet article, d'intervenir sur le changement de valeurs linguistiques et et des différentes formes de malaise et d'aliénation culturelle dans la société algérienne.

Ceci, en démarrant du fait que s'il y a un domaine ou le changement recelé des dimensions symboliques de nature socioculturelles ou identitaires évidentes, c'est bien celui du des valeurs des langues.

L'auteur cherche à dépasser les cadres politiques et communicationnels pour comprendre et chercher les changements des interactions complexes caractérisent les espaces linguistiques dans le paysage langagiers spécifiques à l'Algérie.

المنظومة القيمية اللغوية في المجتمع الجزائري

تمهيد:

على غرار مجتمعات العالم الثلاثية، يشهد المجتمع الجزائري، منذ أكثر من عشرين سنة أزمات حقيقية في المنظومة القيم.

هذا، وإن تعددت أوجه هذه الأزمات، وتنوعت مستوياتها وتباين درجاتها وملامحها: الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، الثقافية، اللغوية، إلا انه هناك إجماع على أن هذه الأزمات تحاصر مجتمعة المشهد العام الجزائري، وتسيطر على مفاصله بشكل تعيق فيه حركيته.

وإن كانت الدلائل والبراهين المادية التي يشتغل عليها الكثير من الباحثين، ويسعى آخرون لإبرازها، للإقرار بان قيما كالحرية، المساواة، تكافؤ الفرص، الحكم الرشيد، المواطنة.... وما إلى ذلك من صور التجسيد الديمقراطي الفعلي، قد باتت من القيم التي لم ولن يتسنى لها التجسيد في مثل مجتمعنا.

فإنه تجدر الإشارة إلى انه قد توجه اغلب المهتمين بالمنظومة القيمية، إلى الإجماع على أنه حتى القيم القاعدية التي كتب لها الوجود كقيم الادخار، العمل، الشرف والدفاع عنه، التضحية، الانتماء، القدوة، المثابرة، والمبادرة، بل وحتى قيمة الوقت وما إلى ذلك من القيم التي أقرتها الإنسانية جمعاء- على اختلاف ثقافة الحضارات، أديانها وأعراقها، ذلك منذ العصور الغابرة - باتت تنقرض الواحدة تلو الأخرى بفعل التحول الرهيب الذي لا ينكف يصيب بنية المجتمع.

هذا وإن كنا نعتبر تجربة المجتمع الجزائري، وصورة منظومته القيمية المتأزمة استثنائية بمقارنتها بتجارب غيرها من المجتمعات، فذلك لكونها وبالنظر للظروف التاريخية التي مر بها المجتمع الجزائري، تحيل لاستقرار نوبة ومعاناة معنوية ذات جذور عميقة، واستمرارها بفعل الهدم الأساسي (La Destruction

(Fondamentale، الذي عرفته مختلف البنى، وعاشت واقعه خلال أزيد من 100 سنة، تحت وطأة الاحتلال الفرنسي من جهة[1].

وبفعل التفتيت(Emiettement) لبقايا البنى القاعدية، بعد الاستقلال، من جراء مختلف التحولات، التي مست هي الأخرى كل الأنساق، دون أن تكون بدورها جذرية وشاملة من جهة ثانية[2].

وإن تم الانطلاق، من كون منظومة القيم الجمعية، إنما هي مترابطة الجوانب، بشكل يستحيل تحليلها ضمن أحد الجوانب دون أخرى، حيث يهدينا في هذا السياق التحليل النسقي إطارا عاما للتفسير، يقصي بموجبه الفصل بين ما يحدث على مستوى النسق السياسي، وما يحدث على مستويات الأنساق الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية. ومن كون أن كل نسق يطرح بالضرورة تداعياته على الأنساق الأخرى، فيؤثر كل واحد على الآخر، ويتأثر بالتالي به، في ظلّ تفاعل واحتكاك تبادلي، اعتمادي وتعاوني[3].

فإنه، يتم التوصل إلى أن كل محاولة لتسبيق نسق على آخر، أو الاهتمام بأحدهم دون الآخر، ستكون ضمن المحاولات اليائسة والفاشلة، ذلك مادام أن هذه الأنساق تتفاعل كلها في كنف منظومة قيمية واحدة ومشتركة، ألا وهي قيم النسق الاجتماعي الكلي، من جهة ومن جهة ثانية إلى أن أصل أزمة القيم في المجتمع الجزائري مرتبطة أشد الارتباط بظاهرة التغيير الاجتماعي، التي ما أن تتسم وتيرتها بالسرعة، التنوع والعنف حتى يحس الكثير من الأفراد بالتيه والاغتراب، كما يتملكهم الشعور باللاأمن، الخوف، والشك في ماهيتهم، فيما كان عليه ماضيهم، وعما سيكون عليه مستقبلهم.

وعليه، إن كان الجزائريون على هذه الصورة، اليوم وبشكل عام، فهم كذلك على المستوى الثقافي واللغوي بشكل خاص، حيث لم تسلم منظومة القيم اللغوية هي الأخرى من التعرض للتغيير والتذبذب، ومن ثم للتأزم.

1- المنظومة القيمية اللغوية قبل الاستعمار الفرنسي للجزائر:

لا يختلف اثنان حول أسبقية العنصر الأمازيغي في تعمير شمال إفريقيا عموما، والجزائر خصوصا، حيث يعتبرون السكان الأوائل، الذين أرسوا معالم الحضارة الأمازيغية، التي تضرب بجذورها في التاريخ العميق.

وعليه، فالفضاء اللغوي الأمازيغي، إنما هو الفضاء الأكثر قدما، الذي لغى من خلاله المتكلمون من السكان، وتفاعل ضمنه.

هذا، وبعيدا عن الجدل القائم ليومنا هذا حول أصول اللغة الأمازيغية عما كانت تعود بالأساس للعرق الهند -الأوربي الآتي بالضرورة من آسيا الصغرى إلى القوقاز، ومن ثم للشواطئ الغربية للبحر الأبيض المتوسط، وإلحاقها بالتالي بنفس عائلة اللغات الانجليزية، الأوردية واليونانية[4]؛

أو للعرق المتضمن للغات الفرعونية والكوشية، تماما كما يتضمن اللغة العربية والعبرية والمهرية[5]؛ أو اعتبارها تنوعا لهجيا للغة الأمريكية الهندية، موازاة مع من يعتبرها منتمية لأسرة اللغات الآفرو أسيوية الشاملة أيضا للغات السامية[6]؛

إلا أنه يبقى الإجماع على حقيقة مفادها أن هذه اللغة، تبقى مميزة جدا، كونها استطاعت وبشكل استثنائي أن تعمر على مر السنين، وتقاوم الانقراض، مستفيدة من كونها لغة شفهية سهلة وغير معقدة، لا تخضع للتقنين الكتابي، إلا أنها تظل ممثلة بشكل دائم لوحدة صرفية تركيبية منهجية على حد وصف (مولود معمري).

كل ذلك، جعل من امتلاكها، يتم وبشكل عفوي، يعتمد على تقوية تدريجية لبنيات ومستويات الكفاءة، التي يسمح إجراؤها، استيعاب وتشرب قواعد مبسطة لاشتغال النظام اللغوي; كما جعل منها شفهية متوارثة من جيل لآخر، ومطورة لقدرة هائلة على الترميز والتعبير، بشكل أصبحت فيه اللغة القادرة على القيام بأدوار تواصلية حميمية ووظيفية، حتى وإن تم تغييبها عن المؤسسة الرسمية للدولة ومن ثم، لأن تكون اللغة الأولى التعبيرية في مجال الآداب الشعبية واليومية.

من أجل كل هذه الميزات، احتمت اللغة الأمازيغية بصفة المرونة (Souplesse) التي تمتلكها كل اللغات الكتابية، فكما قبلت ميكانزمات الاقتراض، المزج، الاستعارة وتعديل الدخيل اللغوي، فهي أيضا تقبلت التجزؤ والتفرع بالتالي للهجات[7]. ويكفي تفحص الخريطة اللغوية للجزائر، حتى يتم معاينة تواصل تواجد الفضاء اللغوي الأمازيغي، من خلال التنوعات الخاصة به، **فالقبائلية:** في منطقتي القبائل الصغرى، **الترقية** بالأهقار، **الشاوية** بالأوراس، **تايرت** بـــ كال آير، **وتادغق** بكال-أدرار ،.... وهكذا.

ونحن إن كنا نستعرض كل هذه المميزات، التي ساهمت في حيوية اللغة الأمازيغية، فذلك للإشارة إلى أن هذه اللغة، لطالما كانت ذات قيمة معنوية مثلى لدى مستعمليها، باعتبارها اللغة الأم الواجب الاشتغال على المحافظة عليها، وممارستها لإطالة عمرها، وتزويدها بما يعينها على أن تكون لغة ذات وظائف، فتعبر عن من هم، وتكون الوسيلة للتواصل، التفاعل والتأثير فيما بينهم.

الأمر الذي يمكن تأكيده من خلال، عدم التخلي عنها وتسليمها كرهينة، ولا لقوة سياسية أو لغوية غازية، مرت على شمال إفريقيا سواء أتعلق الأمر بالقوى القديمة،

وفي ذلك إشارة: لـــ (الفنيق،الرومان،الوندال،والبيزنطيين) أو تعلق الأمر بالقوى الحديثة كـــ(الأسبان والفرنسيين)[8].

هذا، ولعل الحالة الاستثنائية، التي سمح فيها لتبني لغة موازية، وإهدائها قيمة مادية ومعنوية، إنما كان من نصيب اللغة العربية، هذه الأخيرة التي تم استثناؤها، لعدم اصطباغها بحالة الغزو، بل اقترانها بالفتح وعلى الرسالة الدينية المحمدية.

ومن ثم، فقبول الفضاء اللغوي الأمازيغي، لأن يزاحمه فضاء لغويا آخرا، ألا وهو المعرب، لم يكن ليتم، لولا قوة المنظومة القيمية اللغوية الثقافية، التي رأت في عدم كون التزاحم مصدرا لأي ضرر أو موجب للاستنكار بل بالعكس، سيؤسس لعلاقات تلاحمية وحميمية بين الأمازيغ والفاتحين العرب. وفعلا ما أن توضحت رسالة هؤلاء مميزة، حتى باشروا في نشر تعاليمها محترمين وجود الأمازيغ، ووجود لغتهم، وتم التعامل بدءا، حيالهم بشكل يحفظ ممارستها بكل حرية[9].

ولعل للامتثال لقيم الدين الإسلامي الحنيف، دور في كل ذلك، فالانطلاق من كون أنه:" **لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى**". سيجعل من اللغة العربية لا لغة مقدسة، وإنما لغة مستحبة، كونها تستعمل في الصلاة، في قراءة القرآن الكريم وتعلم الدين وأموره، وفي مواضع اتصال محددة; فيم عدا ذلك، ستترك الحرية كاملة للسكان، للغو بما يحلو لهم[10].

هذا التصرف، الذي يُظهر وتحت زاوية سوسيولوجية، أصل ظهور ما يسمى بالتسامح **اللغوي**، الذي يجسد ويكرس قوة اللغتين معا، حدودهما ووظائفهما، بشكل أدى إلى حدوث ظاهرة **الاستبدال اللغوي** اللساني الطوعي والاختياري، لدى مجموعات كبيرة من الأمازيغ، ضمن سياق حكمته مبادئ ديمقراطية. لدرجة عوضت فيه اللغة العربية، ما تبقى من آثار اللغات التي فرضت قبلا كالفينيقية،

اليونانية واللاتينية، دون أن تضر بشيء اللغة الأمازيغية أو تضغط عليها بأي صورة من الصور.

لقد تقبل البعض من الأمازيغ اللغة العربية لدرجة، جعلوا منها لغة أم، طوعا وعن طيب خاطر، ليصبح بالتالي الواقع الجزائري اللغوي: منذ قدوم العرب الفاتحين مزدوجا بين **بربرية أصلية وعربية مرغوب** فيها. وليس ذلك إلا نتاج التفاعل الإيجابي والمميز للعنصر العربي مرغوب فيها ولسبب ذلك إلا نتاج التفاعل الايجابي والمميز للعنصر العربي الأول في وسط الأمازيغي، الأمر الذي هيأ الأرضية للتحول اللساني، ولإمكانية حدوث **الاستعراب**، من خلال أهم مدخل، ألا وهو المدخل اللغوي[11] .

فما أن تواصلت الموجات الثانية من الهلاليين في التدفق، حتى تمكنوا تبعا للعلامة (ابن خلدون): من الاندماج، الاختلاط، الزواج والمصاهرة مع السكان الأوائل، الذين اقتنعوا من عدم التضرر إذا ما تم أخذ اللغة، بالإضافة لأخذ الدين، ليكتب بذلك للغة العربية، أن تنتشر، وتصبح على مرّ الأزمان لغة عبادة، لغة علم، لغة تجارة، بل ولغة تواصل حتى[12].

وإن كنّا هنا نشير ونؤكد على أثر الظروف التعاملية والتفاعلية في قولبة القيم التي يوليها السكان للُّغات، فذلك لثبوت صحته عند إسقاطه على التحول الذي مس القيم ذاتها، والزعزعة التي نالت منها، خلال العهد التركي لحكم الجزائر.

حيث يُذكر، أن الصورة التي كوّنها السكان الأصليون على العرب المسلمين قد اهتزّت بقوة، ومن ثم فالقيمة التي أوليت للّغتهم، وكأنه استدعت المراجعة، أثناء هذه المرحلة. لا لشيء سوى لما ميز هذا العهد: فبالإضافة لما عُرف عن انشغال الحكّام

من دايات، باشاوات، رؤساء بحرية وزعماء الطوائف من بسط النفوذ القتال الشديد على الملك، وتسليط الضرائب، العشور والزكاة على الأهالي[13].

وتصاعد الفتن والثورات البينية والضدية، بين بعض الولاة والحكام، فقد أدى كل ذلك ببعضهم، لتوليد دواعي الصراع بين الأسر ورؤساء القبائل والعشائر من خلال إحياء وبعث النعرات بين من هم: **حضر وبدو** وبين من هم **برّانيون**، ومن هم **أتراك**، بين من هم **عرب أقحاح** ومن هم **أمازيغ بربر**[14].

وعليه، فقد توصل الأمازيغيون للإحساس بحدوث انحراف عقائدي هام، بالمقارنة بالمراحل الأولى للفتح العربي الإسلامي، واستشعروا بأن هذا الحدث ينبئ بالوصول لانحراف عرقي، الأمر الذي عزز الإحباط لديهم، الحقد والخوف إن كان على الصعيد النفسي الفردي أو الجماعي مقابل كل ما يرمز لسلطة البايلك، الممثل لسلطة الدولة العثمانية، في صورتها المركزية للدولة الإسلامية .

ومن ثم في ضرورة التفكير في آليات الانتفاض والثورة، الذي كان يغذيه الحنين لماضي استقلالي رافض لكل صور الاندماج أو الخنوع.

وفعلا، فقد شهدت هذه المرحلة، حدوث عدة ثورات، تناحرات وفتن، لم يضع حدا لها، سوى بداية مباشرة أول الإمبراطوريات الاستعمارية حداثة للبلاد، والممثلة في الاستعمار الفرنسي منذ بدايات القرن التاسع عشر.

2- المنظومة القيمية اللغوية أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر:

إذن، حتى وصول أولى الموجات من الجيوش الفرنسية لشواطئ سيدي فرج الجزائرية، كانت اللغة العربية – وبالرغم من التداعيات التي تم الإشارة إليها سابقا– تواصل على الحفاظ على قيمتها نسبيا لدى الجزائريين، فقد كانت اللغة التي يتم بموجبها التعليم، كما كانت لغة الأدب والتأليف والبحث، وأداة التعامل مع مختلف

مجالس القضاء والمحاكم الشرعية والمراسلات الرسمية والمحاضر الإدارية. ذلك جنبا إلى جنب اللغة الأمازيغية، باعتبارها لغة فئة معتبرة من السكان، فكانت هذه اللغة تحظى بقيمة خاصة لديهم، يتم استعمالها هي الأخرى في مختلف ضروب الحياة اليومية، فكما يمكن لها التواجد في الاجتماعات، الأسواق فهي أيضا، يمكنها الظهور حتى في مواضع العلم والدين، كلغة شرح تدعيميه. بالإضافة لكونها لغة الشعر والقصة: الأدب الشفوي بشكل عام[15].

وأما اللغة التركية، فيشار إلى أنها اللغة التي لا يكاد العثور عليها خارج العاصمة الأمر الذي يؤكد عن كونها لغة البايلك، لا لغة الشعب.

لكن ما أن حدث الغزو، حتى تغيرت كل هذه المعطيات، فقد أصبحت اللغة العربية واللغة الأمازيغية، لغات أجنبية، مقابل اللغة الفرنسية التي أعلن عن كونها لغة الجزائر الرسمية.

وإن تم الاهتمام أكثر باللغة العربية، فذلك لملاحظة وجودها الفيزيقي، وتحديد بسرعة المواضع التي تظهر فيها، ولما تتحصن به من قيمة مادية باعتبارها لغة الوظائف الإدارية، القضائية والتعليمية، وقيمة معنوية، كونها لغة الدين الإسلامي، ومن ثم فالنتيجة الممثلة في عدائها هدفا مباشرا، بديهية[16]. ذلك عكس اللغة الأمازيغية، التي ما أنْ تحقق من كونها لا تخضع للتقنين الكتابي، حتى زال الخوف من خطورتها نسبيا، حتى وإن سجل العداء ضدها.

هذا ورغبة في عدم الخوض التفصيلي في عرض ومناقشة جملة السياسات اللغوية في الجزائر، حيث توجد الكثير من الأبحاث الدراسات التي ركزت على تناول هذا الجانب بإسهاب.

فإنه أكثر ما يهمنا، هو استنتاج أن محاولة الاستعمار من الحطّ من قيمة لغات الجزائريين ليتم التخلي عنها، وتبني أخرى، كانت مطابقة لمحاولته من نيل المقومات الأخرى، غير اللغوية، حيث أنها تمت كلها على نفس المنوال التدريجي، ووفقا للصبر والحذر الاستراتيجيين.

فقد تتالت الإجراءات التمييزية المجحفة إزاء اللغة العربية وتدريسها، حيث ترتب عنه في بادئ الأمر، عدم المنع المباشر لتدريس اللغة العربية، وتفادي الاستفزاز المعلن، فبودر بقطع مصادر الوقف عن المؤسسات المعنية بتعليمها، وتم اختزال التدريس كله، في تعليم القرآن الكريم دون دراسة العلوم المساعدة والميسرة لفهمه وتفسيره. والاكتفاء بتدريس اللغة العربية الدراجة منها، لكل من يرغب في الحصول على وظيفة إدارية ضمن السلطات الفرنسية، إيهاما بأنه يتم الحفاظ على لغة الأهالي واحترامها، في حين أنها كانت إحدى الاستراتيجيات العسكرية والسياسة المحكمة[17].

بعد تطبيق لمثل هذه الإجراءات، وبعد مرور زهاء عشرين سنة من الاحتلال بادرت السلطات لشد الخناق على اللغة العربية، حيث تم هدم المساجد والزوايا التي كانت بمثابة البنى القاعدية للتعليم التقليدي الذي كان شديد الانتشار. في حين، سمح لحفنة من المساجد والتي تعد على رؤوس الأصابع من النشاط، ونشرت، بالمقابل صيغة تعويضية من المدارس التعليمية، ألا وهي المدارس الرسمية الثلاث، التي سارت هي الأخرى وفقا لخطة تدريجية، تم بموجبها في بادئ الأمر، جذب المتعلمين، حيث تم إغراؤهم من خلال اعتماد التعليم المعّرب، لتليها مرحلة اعتماد التعليم المزدوج، وانتهاء بمرحلة اعتماد التعليم المزدوج ظاهرا، والمتميز للغة الفرنسية باطنا[18].

أمام هذه المحاولات، يكتب (ديبارمي) متعجبا بأن الأهالي، على الرغم من سذاجتهم، إلا إنهم تفطنوا لخطورتها، الأمر الذي عبر عنه بـــ: "**ردود الفعل اللغوية**"[19].

هذه الأخيرة التي تمثلت أساسا في مقاطعة الأهالي التامة والجازمة للغة المحتل، حتى وإن كلفهم الأمر عدم الاستفادة من التعليم باللغة العربية التي رأوا فيها، عربية دارجة، وبعيدة على ما تمتلكه اللغة العربية الفصحى من سحر وقوة.

وعليه فقد أثبتت هذه الأفعال، إذا ما تم تحليلها تحت زاوية سوسيولوجية، بأنها سلوكات تحركها القيمة الطقوسية اللغوية الخاصة بالعربية، حيث يضيف (ديبارمي): "إن الأهالي يعتبرون المسألة اللغوية، مسالة حياة أو موت"[20].

ومن ثم فالتذكير في هذا المقام، بواقع العلاقة بين الفضاء ين الأمازيغي الأصلي، والفضاء العربي القادم من الفاتحين، الذي اتسم بالتعايش، ليجسد ارتباطا ايجابيا بين الأمازيغ والعرب وبين ثقافتيهما وهوياتهما. بالنظر لحيثيات وظروف القادمين وأسباب وفودهم، وكيفية تعاملهم مع المستقبلين. يسهل علينا، فهم واقع العلاقة بين الفضاء ين العربي/الامازيغي المستقبل، والفضاء الفرنسي القادم مع الغزو، والذي اتسم بالعداء والصدام، ليجسد صراعا سلبيا بين الجزائريين أمازيغ وعرب من جهة، والفرنسيين من جهة ثانية.

إذا كان هذا الواقع مفهوما ومفسرا بداهة، لما يتعلق بالمستعربين من الأمازيغ، فقد كان من المدهش- أن يقوم الأمازيغ الذين حافظوا على أمازيغيتهم، بالرغم من تبني العروبة والإسلام كمقومين إضافيين، بنفس ردود الفعل اللغوية تجاه كافة المحاولات الفرنسية في عزلهم عن عموم المجتمع الجزائري واستمالتهم، وردهم بالعكس بالمشاركة الفعلية والفعالة، في شتى مراحل وأنواع الكفاح. ذلك بالرغم من التركيز الذي لا قوه، من طرف السلطات الاستعمارية، والتشويهات والتحريفات التاريخية التي أشاعتها عليهم، وتضخيمها منذ إحكامها السيطرة على المناطق التي يسكنونها[21].

وتمسكهم أكثر: بالدين واللغة العربية، أكثر من أي وقت مضى، بشكل يذهب فيه أحد أهم الأصوات اللسانية الأمازيغية، وأكثرهم اختصاصا (سالم شاكر) لشرح- وباندهاش- مدى تزييف الوقائع التاريخية المتعلقة بخيانة الأمازيغ في عهد الاستعمار للغة العربية، وموالاتهم للغة الفرنسية، مبرهنا على النقيض ذلك تماما. حيث يشير إلى أنه قامت السلطات الفرنسية أكثر من غيرها بالضغط بشدة. وبشكل عكسي بالمساهمة الفعالة في تعريب أكثر للأمازيغ[22].

وعليه، فقد باتت كلا من اللغة الأمازيغية واللغة العربية قطبان مساهمان في تحديد معالم هوية لغوية مختلفة لتلك التي يمثلها الاحتلال الفرنسي، بل ولتلك التي يريدها له أيضا. في حين، ظلت اللغة الفرنسية، لغة حاملة للاضطهاد والجور الاستعماريين المكرسين لثقافة الإقصاء والنفي لغيرها من اللغات.

لقد أدى الصدام العنيف بين المجتمعين الجزائري والفرنسي وبين ثقافتيهما، إلى صدام لغتيهما، وذاك أمر موضوعي وطبيعي إذا ما نظر إليه من زاوية الحقوق والأعراف اللغوية لكل المجتمعات والثقافات مهما كان موطنها، أصلها ودرجات تقدمها أو تأخرها في حالة الصدام والهيمنة.

ومن زاوية أن اللغات عموما وقيمتها إنما تتأثر شديد الأثر بالظروف والمميزات السوسيولوجية التي تتفاعل ضمنها.

هذا، وتجدر الإشارة هنا إلى حالة الالتقاء الصدامي، لم تكن لتدوم إلى الأبد، فقد خفت حدته بالتدريج، لانت بل وعدلت موازاة مع حدوث مستجدات عالمية ومحلية. حيث، وبعد تسجيل المقاطعة الحازمة والكلية للجزائريين (أمازيغ ومستعربين) لكل صيغة تعليمية للغة الفرنسية، تمكنت طبقة معينة من التجاوب مع هذه الصيغة. هذا التجاوب على قدر ثبوته، إلا انه اتسم ببقائه انتقائيا (Sélectif). حيث تضمنت هذه الطبقة المتجاوبة أبناء القياد، الباشاغوات، الإقطاعيين، التجار الكبار والموظفين في

الإدارات الاستعمارية والمتعاملين معها، من المستعربين[23] تماما كما الأمازيغ، حيث شاع بأن هؤلاء تم تبينهم الفوري للغة الفرنسية وتعلمها من طرف أطفالهم، الأمر الذي كذبته شهادات الحكام الفرنسيين أنفسهم. حيث أنه يرد في هذا السياق: إن الطبقة المتجاوبة في المناطق القبائل كانت مكونة أساسا من المشردين واليتامى وممن فقدوا ذويهم أو تعرضوا للسجن، بالإضافة لأبناء الكولون وبعضا من أبناء الموالين لفرنسا[24].

هذا السلوك التجاوبي، الذي كان ينظر إليه من طرف بقية الأفراد على أنه مماثل للخيانة والخنوع، ومطابقا للقبول بمحاولات الاندماج. ليتم تسجيل وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى: الوصول للمرور من مستويات موقفية إيديولوجية تجاه اللغة الفرنسية إلى أخرى اقتصادية وسياسية نفعية حيالها.

فقد تم التخلي على النظرة المؤسسة على رفض التعلم والتعامل باللغة الفرنسية بشكله المتطرف، وعدلت إن لم نقل سويت (normalisation)، من جراء الأثر الفعال لظروف دولية على تنشيط النهضة والاستفاقة الوطنية، والتي أول ما ظهرت ملامحها: ظهور مختلف المؤسسات الممثلة للمجتمع المدني، كالأحزاب المنظمات السياسية ،الجمعوية والإعلامية، التي أعلنت أهدافا وسعت كلا تبعا لقدراتها ووسائلها لتحقيقها، ولتعطش الجزائريين للنهل من الثقافة، وسئمهم من حالة الحصار التجهيلي الذي ضرب وطبق عليهم، على حد وصف (مصطفى لشرف)[25].

وفعلا، تسرسل (فاني كولونة)[26]، وتؤكد أنه قد تحولت النظرة إلى المدرسة التي تعلم باللغة الفرنسية، وتم فصلها عن أوجه الاستعمار الأخرى، بوصفها ضرورة اجتماعية واقتصادية. الأمر الذي قيض للجزائري آنذاك، إدراك المزايا التي يمكنه

جنيها من التمدرس، وإمكانيته من تبوء المنزلة الاجتماعية اللائقة به في صلب النظام الاستعماري ،والانخراط في الوظيف العمومي، الأعمال الحرة والمهن الاقتصادية وأكثر من هذا: فقد تيقن الجزائري من ضرورة إتقان لغة الاستعمار وتملكها وتمثل طريقة تفكيره كي يتوصل لمجابهة ظلمه وجوره.

أدت هذه الدواعي كلها، ولأول مرة، لبروز صورة ثقافية وإيدولوجية معتدلة، ممثلة في تعاون النخب إن كانت تلقت ثقافتها وتعلمها باللغة الفرنسية أمثال (سي عمار أو سعيد بوليفة)، (إبراهيم زلال)، (مولود معمري)، (جون عمروش) من جهة الأمازيغ. و(العربي فخار)، (عمر راسم)، و(الأمير خالد) ،(فكتور سليمان)، (مالك بن نبي)، (محمد ديب) من جهة المستعربين. أو تلقت ثقافتها وتعلمها باللغة العربية أمثال: (علي أوليخار)، (الفوضيل الورتيلاني)، (الصادق عيسات) و(محمد وعلي السحنوني) من جهة الأمازيغ. و(عبد الحميد بن باديس)، (البشير الإبراهيمي) و(رضا حوحو) من جهة المستعربين، على تجاوز للحساسيات اللغوية وحمل هموم مشتركة يكون لها الأثر الايجابي على المشهد النضالي.

3- **المنظومة القيمية اللغوية بعد الاستقلال:**

لقد تمّ، من خلال ما سبق، تتبع – وبوضوح – تغير مكانات اللغات وسلم القيم المتعلق بها، في ظل الظروف التاريخية المختلفة التي ميزت المجتمع الجزائري.

وعليه، فإن كان من الطبيعي أن ما ميز فترة الاستعمار، إنما سيتغير ملامحه كلية بعد جلاءه عن البلاد، أي ابتداء من تاريخ 05 جويلية 1992. إلا أنه يوجب التنويه إلى أنه، ما يندرج ضمن خانة الطبيعي، قد لا يمكنه أن يشمل وبشكل كلي البنية السوسيو ثقافية فيه.

فمحو الآثار التي مسّت عناصر هذه الأخيرة، وتغير واقعها، لا ولن يتم بين عشية وضحاها، على حد شرح (وليام أوجبرن William Ogbern) عند تعرضه لمفاهيم الثقافة المادية، الثقافة المعنوية والهوة الثقافية، بل وحتى التغير الاجتماعي. خصوصا

جنيها من التمدرس، وإمكانيته من تبوء المنزلة الاجتماعية اللائقة به في صلب النظام الاستعماري ،والانخراط في الوظيف العمومي، الأعمال الحرة والمهن الاقتصادية وأكثر من هذا: فقد تيقن الجزائري من ضرورة إتقان لغة الاستعمار وتملكها وتمثل طريقة تفكيره كي يتوصل لمجابهة ظلمه وجوره.

أدت هذه الدواعي كلها، ولأول مرة، لبروز صورة ثقافية وإيدولوجية معتدلة، ممثلة في تعاون النخب إن كانت تلقت ثقافتها وتعلمها باللغة الفرنسية أمثال (سي عمار أو سعيد بوليفة)، (إبراهيم زلال)، (مولود معمري)، (جون عمروش) من جهة الأمازيغ. و(العربي فخار)، (عمر راسم)، و(الأمير خالد) ،(فكتور سليمان)، (مالك بن نبي)، (محمد ديب) من جهة المستعربين. أو تلقت ثقافتها وتعلمها باللغة العربية أمثال: (علي أوليخار)، (الفوضيل الورتيلاني)، (الصادق عيسات) و(محمد وعلي السحنوني) من جهة الأمازيغ. و(عبد الحميد بن باديس)، (البشير الإبراهيمي) و(رضا حوحو) من جهة المستعربين، على تجاوز للحساسيات اللغوية وحمل هموم مشتركة يكون لها الأثر الايجابي على المشهد النضالي.

3- **المنظومة القيمية اللغوية بعد الاستقلال:**

لقد تمّ، من خلال ما سبق، تتبع – وبوضوح – تغير مكانات اللغات وسلم القيم المتعلق بها، في ظل الظروف التاريخية المختلفة التي ميزت المجتمع الجزائري.

وعليه، فإن كان من الطبيعي أن ما ميز فترة الاستعمار، إنما سيتغير ملامحه كلية بعد جلاءه عن البلاد، أي ابتداء من تاريخ 05 جويلية 1992. إلا أنه يوجب التنويه إلى أنه، ما يندرج ضمن خانة الطبيعي، قد لا يمكنه أن يشمل وبشكل كلي البنية السوسيو ثقافية فيه.

فمحو الآثار التي مسّت عناصر هذه الأخيرة، وتغير واقعها، لا ولن يتم بين عشية وضحاها، على حد شرح (وليام أوجبرن William Ogbern) عند تعرضه لمفاهيم الثقافة المادية، الثقافة المعنوية والهوة الثقافية، بل وحتى التغير الاجتماعي. خصوصا

وأن الأمر: هنا يتعلق بآثار ورواسب معنوية ومادية في آن واحد لوجود أجنبي استيطاني دام لأكثر من 100 سنة.

كما سيتعلق بمعالجة هذه الآثار، وفقا لسياسة إنكار وقائع التاريخ وأعبائه الثقيلة، في ظل غياب التفكير السوسيولوجي العميق لكيفية التعامل مع أثر هذا الوجود الاستيطاني على وعي وذهنية الجزائريين والذي، قد بدأت ملامحه تلوح في الأفق ،منذ السنوات الأولى من الاستقلال من خلال جملة التناقضات التي بدا المجتمع الجزائري يحياها وحتى يومنا.

هذه التناقضات التي جعلت من أفراده دائمي البحث عن ذواتهم، عن التراضي بين الأنا الحميمية والآخر وبين جذور ومنابع الأصالة والوفاء لها، وبين أصول الغيرية ومصادر العصرنة التي كانت تتسلح بها.

وليس، ما حدث على مستوى اللغة ولا يزال يحدث، سوى نموذج لصورة الإشكاليات الناتجة عن صدام الشعوب وثقافتهم. هذا الصدام الدامي والقاسي، الذي وإن تم حقيقته عن طريق السلاح، إلا أن جوهره هو صراع أناس من خلال اللغة[27].

لقد سعت السلطة الجزائرية المستقلة، الأخذ بزمام الأمور، حيث حاولت عصرنة المجتمع، وتأكيد استقلاله إن كان عسكريا، اقتصاديا سياسيا واجتماعيا وثقافيا.

فمن خلال هذا الأخير (الاستقلال الثقافي)، أولت بالمسألة اللغوية: اهتماما خاصا، باعتباره يحيل بالضرورة لإشكاليات ذات علاقة بالهوية، كيفية إعادة غرسها ضمن الأصول والأصالة، واسترجاع مقوماتها، تماما كما كانت ذات علاقة بالشرعية في استعادة الكرامة المداسة من قبل الاستعمار الفرنسي من أجل التمكن من المصالحة مع الذات.

وأن الأمر: هنا يتعلق بآثار ورواسب معنوية ومادية في آن واحد لوجود أجنبي استيطاني دام لأكثر من 100 سنة.

كما سيتعلق بمعالجة هذه الآثار، وفقا لسياسة إنكار وقائع التاريخ وأعبائه الثقيلة، في ظل غياب التفكير السوسيولوجي العميق لكيفية التعامل مع أثر هذا الوجود الاستيطاني على وعي وذهنية الجزائريين والذي، قد بدأت ملامحه تلوح في الأفق ،منذ السنوات الأولى من الاستقلال من خلال جملة التناقضات التي بدا المجتمع الجزائري يحياها وحتى يومنا.

هذه التناقضات التي جعلت من أفراده دائمي البحث عن ذواتهم، عن التراضي بين الأنا الحميمية والآخر وبين جذور ومنابع الأصالة والوفاء لها، وبين أصول الغيرية ومصادر العصرنة التي كانت تتسلح بها.

وليس، ما حدث على مستوى اللغة ولا يزال يحدث، سوى نموذج لصورة الإشكاليات الناتجة عن صدام الشعوب وثقافتهم. هذا الصدام الدامي والقاسي، الذي وإن تم حقيقته عن طريق السلاح، إلا أن جوهره هو صراع أناس من خلال اللغة[27].

لقد سعت السلطة الجزائرية المستقلة، الأخذ بزمام الأمور، حيث حاولت عصرنة المجتمع، وتأكيد استقلاله إن كان عسكريا، اقتصاديا سياسيا واجتماعيا وثقافيا.

فمن خلال هذا الأخير (الاستقلال الثقافي)، أولت بالمسألة اللغوية: اهتماما خاصا، باعتباره يحيل بالضرورة لإشكاليات ذات علاقة بالهوية، كيفية إعادة غرسها ضمن الأصول والأصالة، واسترجاع مقوماتها، تماما كما كانت ذات علاقة بالشرعية في استعادة الكرامة المداسة من قبل الاستعمار الفرنسي من أجل التمكن من المصالحة مع الذات.

وعمدت بالتالي لتنفيذ عدة سياسات لغوية، لم تدر في مجملها على الوضعية الثقافية واللغوية الجزائرية سوى تشويشا للمعالم. خصوصا منذ اعتماد السياسات التعريبية الأولى والثانية التي عرفت أشواطا وجولات متفاوتة، كلا تبعا لما عرفته من مشاكل، عوائق مادية أو معنوية، أو مماطلات سياسية أو اجتماعية. فقد عرفت مثلا سنوات **65/62، 67/65، 68/67**، تدرجا ملحوظا في الاقتناع بأهمية التعريب ومن ثم تدرجا، في دفع عجلته للأمام.

فواقعه في عهد (الرئيس بن بلة)، كان مغايرا لما عرفته العهود الأولى للرئيس (هواري بومدين)، وكلا المرحلتين تبتعدان بكثير عن واقع العملية التعريبية سنوات **1976/1971**، هذه السنوات التي سميت بسنوات التعريب[28].

فُسر تزايد الحماس لتطبيق السياسة التعريب، بأن الاستعمار الفرنسي لم يدخر ولا جهد من أجل إقصاء اللغة العربية، والقضاء عليها والانتصار بالتالي للغته الفرنسية. ومن ثم فقد حان الوقت حتى يتم قلب الموازين لصالح أهم المكونات الأساسية للهوية الجزائرية والممثلة في اللغة العربية[29].

هذه السياسة، التي تم بموجبها إعراب الجزائر عن انضمامها المصيري واندماجها في الرقعة الحضارية والثقافية للأمة العربية والمجموعة الإسلامية، بتبنيها للعربية لغة، الإسلام دينا لكل من الشعب والدولة الجزائرية.

هذا الأمر الذي تكتب حوله **(خولة طالب الإبراهيمي)** بأنه وبالنظر لنتائجه، يجوز لنا جزما أن نحكم بأنه لم ينبن على تفكير علمي وعقلاني للواقع اللغوي للبلاد، ولسلم القيم الذي يحركه[30].

فقد تم تجاهل تام وعنيف جدا، لحقائق مفادها: أن اللغة العربية لم تكن لكثير من الجزائريين الوطنيين: اللغة التي تم التكوين بها، ليس هذا فحسب بل، وتم اعتبار أن

كل مواصلة بالتكوين بغيرها، إنما سيحيل إلى تبعية لغوية، ومن ثم خيانة ثقافية ووطنية.

كما أنه تم تجاهل قاس لعدم كون اللغة العربية،- ولو إن تم احترامها- اللغة الأم للكثير من الجزائريين، ألا وهم الأمازيغ، بل وتم اعتبار لغتهم غير وطنية ولا عالمية ومن ثم فكل مطالبة بتغيير واقعها، سيرمز لا محال، لمحاولة التجزئة وتشتيت الوحدة العربية القومية والوطنية.

كل ذلك من شأنه إعادة رسم العلاقات بين الفضاءات اللغوية الثلاث: الأمازيغية والعربية من جهة، العربية والفرنسية من جهة ثانية والأمازيغية والفرنسية من جهة ثالثة.

فبعد أن تم التوصل، وبعد عناء كبير لتسوية عدة ظواهر لغوية في خضم حركية العلاقات بين اللغات الثلاث، كما تمت معاينته قبلا. ذلك بعد أشواط طويلة وقاسية من الصدام، حيث ظهرت اللغة الفرنسية،بصورة المُهيمن، وتبوأت مكانة اللغة الوطنية والرسمية بشكل إقصائي، في حين أبعدت وقزمت كلا من الأمازيغية والعربية، فطوردت هذه الأخيرة وبشكل متوحش، كما جعلت لغةً ممنوعةً ومقصيةً من كل المؤسسات الإدارية منها، التعليمية، بل وحتى الدينية، لما لها من قوة شحن وتأكيد لهوية المستُعمَرين.

في وقت، كانت فيه اللغة الأمازيغية، في منأى عن هذه الوحشة نسبيا، ليس حبا فيها، وإنما لاعتبارها من طرف المُستعمر أقل خطورة طالما أنها تفتقد لهالة وسلطة التقنيين الكتابي.

أدى كل ذلك، باللغات المحلية للتحالف، ضد عدو واحد بل وأكثر من ذلك، تم توصل ضمن الفضاءين الأمازيغي والعربي للتمييز بين من يخدم الفضاء الفرنسي من أفراده وعناصره وبين من يستخدم الفضاء الفرنسي من أجل أغراض وأهداف وطنية.

هذه الظاهرة، التي يمكن تحليلها: بمدى اجتهاد الجزائريين وقدرتهم في هذه المرحلة على التفكير العقلاني، وتجاوز المستويات الموقفية الإيديولوجية، والوصول إلى مستويات براغماتية تكييفية تنّم عن حالة صحية، تم بموجبها تجاوز حالة الحرمان(**Frustration**)' اللغوي- الثقافي والهوياتي، الذي ميّز لقاءهم الأول مع اللغة والفضاء الفرنسيين، من جهة.

وبمدى توصل هؤلاء لتعديل عكفة الضغط الممارس عليهم، إن كان ثقافيا أو لغويا. من جهة أخرى.

ليتم الرجوع إذن إلى نقطة الصفر، بعد الاستقلال، حيث، ظهر وبشكل مناقض، أغلب المستعينين بالخطاب الفرانكفوني في الجزائر المستقلة، بصورة الفرانكفوليين. ومن ثم فكثيرا ما يشار إليهم، على أنهم عوامل التبعية الثقافية واللغوية، أو بدرجة أقل كعملاء يتم الرهان عليهم من أجل ترقية اللغة الفرنسية، وحماية مصالحها في البلاد، من خلال تسميتهم "حزب فرنسا".

هذا وما أن يصادف أن يكون صاحب الخطاب الفرانكفوني أمازيغي الأصل، حتى يتم إلصاقه تهمة محاولة التقسيم، الخيانة، والتبعية للغرب، وخدمة المصالح الأجنبية[31].

كل هذه الاعتبارات، التي تشير بشكل مضمر وعلني، لأزمة تمثلات نابعة أصلا عن أزمة قيم.

فقد أجمع، سواء من عايشوا مرحلة الاستقلال، أو من تناولها بالدراسة، أنه وعلى نحو مفارق، أخذ استعمال الفرنسية، يتعاظم بعد استقلال المجتمع الجزائري، وتحرره من قبضة الاستعمار. ولعل ذلك مفسر نفسيا باعتبار أن التعديل اللغوي، قد تمّ، مما أدى بالكثير للحديث عن فرنسة ارتجاعية- **Francisation à rebours** -. ذلك

أمام المجهودات الجبارة التي بذلتها الدولة الفتية في مجال التمدرس والتي تفسر جزئيا انتشار أكثر للغة الفرنسية، في انتظار تطبيق التعريب.

حيث كان لتسخير الجزائريين الحاملين للشهادات أو المعلمين الذين كان جلهم قد تكونوا باللغة الفرنسية والمتعاونين الأجانب (الفرنسيين الذي اختاروا البقاء- خصوصا)، الأثر الواضح في تكريس الازدواجية اللغوية، إما بالقوة أو بالفعل في النظام التربوي والمجتمع بشكل عام[32].

بل وحتى سنوات **1978** من تاريخ تطبيق المدرسة الأساسية المعربة بشكل تام، كانت هذه الازدواجية، قد أصبحت الخاصة المميزة للمجتمع بأكمله.

وعليه، فلا غرابة أن يتم هذه المرة التحالف بين اللغة الفرنسية - التي أصبحت لغة الشعب- واللغة الأمازيغية التي شهدت احتقار وقهرا من طرف السياسة التعريبية، التي جعلت من مكانتها مطابقة لتلك الخاصة باللغة الأجنبية.

لقد: غُذي بالتدريج ميل الأمازيغ للغة الفرنسية، حيث رأوا فيها لغة اتصال ذات فائدة.

وغذي بالعكس العداء من طرفهم تجاه اللغة العربية، التي رأوا فيها لغة السلطة، التي تحاول حرمانهم من لغتهم الأم.

ومن ثم فلعله يحب الاتفاق مع من يرى، أنه مالم تتوصل إليه السلطات الاستعمارية إبان مرحلة الاحتلال، قد توصلت إلى تحقيقه- وللأسف- السلطات ما بعد الاستقلال.

فعوض أن تصبح اللغة العربية على حد تعبير(المَنجي الصيادي) لغة مُواجهة للغة الأجنبية المسيطرة، وباسطة من ثم لنفوذها بشكل يسمح فيه ترسيخ الحق في الوجود العربي، الإسلامي وفي طلب التعليم باللغة القومية.

وأن تكون لغة التخاطب، لغة الدعاية، لغة الإدارة، ولغة التكوين العلمي أي باختصار: أن تكون الأداة التي تصلح للتعبير عن كل الأحاسيس والعواطف والأفكار التي تختلج في نفس الإنسان الذي يعيش في عصر الذرة والصواريخ".[33]

فقد تحولت للغة واجهة، وبشكل منافق- تتمتع بهالة من التقدير الرسمي ليس إلا. في حين راحت اللغة الفرنسية تستغل مكانة اللغة الأجنبية أيم استغلال، حيث جعلت من شأنها، غير شأن اللغات الأجنبية الأخرى كالانجليزية، الألمانية أو الاسبانية.

فتمكنت منذ السنوات الأولى، وبعد جولات عديدة من الصراع والمقاومة لأن تكون طاغية، وحتى يومنا هذا، في كل التخصصات العلمية والتكنولوجية، بل ولتكون أيضا لغة مساعدة، إن لم نقل ضرورية وذات امتيازات في دراسات ما بعد التدرج، حتى لتلك التي تتم وتقدم باللغة العربية ذاتها.

ثم إن، لسعة استخدام اللغة الفرنسية في المجتمع الجزائري لخاص ومدهش، فهي "لغة الخبز"، باعتبارها جارية الاستعمال في أهم الميادين، وأكثرها حساسية. فالحياة الاقتصادية والمالية والإدارية العليا، لا تشتغل بغيرها، كما أنها تحتل مكانة مرموقة في وسائل الإعلام المكتوبة، المسموعة وحتى المرئية. هذه المعاينات تؤدي لإعادة التساؤل عن قيمة اللغة الفرنسية في مجتمعنا وسر تعاظم سلطانها وعنفها الرمزيين. عما إذا كانت فعلا اللغة الأجنبية أم اللغة الأجنبية ذات الامتياز، أما يجدر اعتبارها أحد اللغات الوطنية، كما يذهب إليه- سخرية- البعض.

كل ذلك، أمام نكران متواصل وعجرفة رسمية وإيديولوجية لواقع هذه اللغة، ولدينامية اشتغالها، فقد أثبتت الدراسات السوسيولغوية، تماما، كما أثبتت مراكز الإحصاء بأن أغلب الجزائريين حتى وإن هم لم يتمدرسوا، يعرفون ولو بشكل عرضي اللغة الفرنسية.

الأمر الذي يجعل من مجتمعنا، المجتمع الفرانكفوني الأول- إن نحن شئنا أم أبينا سياسيا- بعد المجتمع الفرنسي، بالنظر لعدد الأطفال الذي يعرف استعمال اللغة الفرنسية، حيث يبلغ قرابة الـ6 ملايين[34].

يكتب أحد المختصين[35] بواقع اللغات في الجزائر عن اللغة العربية، أنها تحولت وبعد تطبيق السياسية التعريبية لأداة انتقاء اجتماعي « Moyen De Sélection Sociale »، حيث ينتهي الأمر بالطبقات، ذات الرأسمال الاقتصادي المرتفع لتفادي التعريب. هذا الأخير الذي يذكر بأنه المشروع الذي فكرت فيه النخبة للأغلبية من الشعب، فيتم تسجيل أبناء ذوي هذه الطبقة، بل وأبناء النخبة إما ضمن التخصصات التي يتم التكوين فيها باللغة الفرنسية أو ضمن المدارس الخاصة التي يستحيل التدريس ضمنها بغير اللغة الأجنبية، والفرنسية في مقدمتها.

وبذلك، يتم تحويل الرأسمال الاقتصادي أو الثقافي (في حال النخبة) إلى رأسمال لغوي، يتم ممارسة العنف الرمزي والهيمنة من خلاله، على حد شرح (**بيير بورديو Pierre Bourdieu**).

وعليه، فلا غرابة في أن يصبح الرأسمال اللغوي في الجزائر، عامل تفيئة وطبقية: فيكفي ملاحظة ما يحدث واقعا، حتى يتم استنتاج أن الجزائريون، قد أصبحوا تدريجيا وبشكل كلي منقسمين إما إلى معربين (**Arabophones**)، مفرنسين (**Francophones**) وممزغين (**Amazighones**).

الأمر، الذي يضعنا أمام خطاطات (**Schèmes**) جديدة، مبنية على تعارض جوهري بين نسق لغوي عصري وأنساق تقليدية.

ومن ثم أمام تفيئة آلية، تحيل أساسا لعدم تكافؤ اجتماعي واقتصادي، لهيمنة رمزية وإقصاء بعض الفئات لأخرى من خلال اللغة.

وعليه: فالحرمان اللغوي**La Frustration Linguistique**)، الذي سبق وأن عانى منه الجزائريون في المراحل الأولى من الاستعمار، سيسجل عودته، وبقوة منتجا حساسيات قاتلة، ذات ثقل معتبر على العلاقات البين-لغوية.

لقد ضاعت من الجزائريين، مهارة المرور من مراحل الحرمان، لمراحل التسوية والتعديل، فظروف الحرب لا يمكنها أن تكون مطابقة لظروف السلام. ومن ثم فقد جُعل منهم وبعد تطبيق سياسات محددة، حالة شاذة لغويا، فبالإضافة لكونهم غير قادرين من التخلص مما يسمى بالاحتيار اللغوي **(L'hésitation Linguistique)** المبرهن عليه من خلال مختلف السلوكات المرضية والتمثلات اللغوية – الهوياتية غير الصحية، التي يقومون بإظهارها في ظل الصراع الشرس والمتواصل بين الفضاءات اللغوية، والمهدد بدوره لجميع دوائر وقطاعات المجتمع.

فهم أيضا، وبشكل استثنائي يكتبون لغات لا يمكنهم تكلمها، ويتكلمون بلغات لا يمكنهم كتابتها.

وفي ذلك إشارة لأقصى حالات النفاق الرسمي على مستوى اللغة: فاللغة العربية وبالرغم من كونها اللغة الوطنية والرسمية، كما تؤكد عليه كل الوثائق الرسمية، إلا أنها في الواقع لا تزال تبحث عن إتقان وممارسة فعلية وملموسة من طرف أفراد المجتمع.

كما أن اللغة الأمازيغية، وبالرغم من عدم كونها لغة كتابية، تبقى لغة ممارسة شفويا، باحثة بدورها على الاعتراف الرسمي، بالإضافة للاعتراف الوطني الذي تمّ حديثا لها.

هذا، وتبقى اللغة الفرنسية، اللغة الأجنبية والتي يبدو أنها تتجاوز هذه المكانة، حيث ترتقي لأن تكون أحد اللغات الأكثر حميمية سواء للأمازيغ أو المعربين من الجزائريين، متمنية بذلك انخراط المجتمع الجزائري الرسمي ضمن المجتمعات الفرانكفونية.

هذا الواقع المعقد للغات موجودة، وباحثة في مجملها عن مساحات أكبر للممارسة من جهة، والاعتراف الرسمي من جهة أخرى، يزيده تعقيدا على تعقيد: ما يحدث في سوق العمل والذي تتوصل فيه اللغة الفرنسية، لأن تكون اللغة الأكثر حظا في أن تتجسد كلغة عمل، لغة النخبة المثقفة والسياسية ولغة الارتقاء الاجتماعي.

في حين تظهر اللغة العربية، بصورة اللغة التي تنتج عددا هاما من الحاملين لشهادات، لا تمكن سوى من تبوأ مناصب دنيا ذات علاقة تبعا لـــ **(عبد الناصر جابي)**[36] للتراث، التاريخ،التعليم والقضاء.

هذا ويبقى حال اللغة الأمازيغية، الأسوأ حيث وإن تم التكوين ألإقصائي بها، سيكون مآل المكونين بها، البطالة والتهميش.

ومن ثم، فهناك إمكانية، للحديث عن تقسيم لغوي معتمد من قبل المؤسسات السياسية، وتقسيم يفرضه واقع العمل. ذلك ما يعتبر خصوصية جزائرية في إنتاج النخب وإنتاج اليد العاملة.

هذين التقسيمين، اللذين يؤديان لخلق دولة غير متجانسة، تضم مجتمعات فرعية كانت أهم مظاهرها صراعات إيديولوجية، وأصبحت تشكل تهديدا على شرعية الدولة. وبالتالي تعزيز وتوسيع دائرة الأزمة الاجتماعية.

هذا، ووصولا للحديث عن الأزمة، وكمحاولة لصياغة خاتمة لكل ما سبق، يتم الانتهاء إلى أنه عوض أن يوجه التنوع القدري الذي تتسم به الجزائر على مستوى اللغة، وجهة حضارية يخدم المجتمع في مجالات البحث العلمي، التواصل والتثاقف، فقد حُول لانحراف، لم يتوقف عند حد التعامل مع لغات مختلفة في الأصل، البنية والديناميكية، بل يذهب لحد أبعد، قد يقضي فيه على كل اللغات، وتزيد من نسبة الشرخ في تكوينها البنيوي والعلائقي.

فيكفي فقط، ملاحظة العام والخاص لمستويات الاتصال اللغوي وأشكاله في المجتمع عموما، وضمن الدوائر المثقفة خصوصا، حتى يتم التأكد من ذلك.

وعوض أن يتم الاستفادة من التجارب السابقة في مجالات التسامح، الاستبدال والتسوية اللغوية، والتي سبق للمجتمع الجزائري أن حققها فعلا، فقد أصبح في جزائر ما بعد الاستقلال من الصعوبة القصوى، التجسيد لمثل هذه الظواهر الصحية. فيكفي ملاحظة كيف يعزز الفضاء اللغوي المعرّب، يوما بعد يوم اكتسابه لعدو إضافي للفضاء اللغوي المفرنس، هذا العدو الجديد الممثل في الفضاء اللغوي الأمازيغي، والذي بالعودة للحقائق التاريخية، لطالما كان أهم حليف له.

وكيف يتدرج الفضاء اللغوي الأمازيغي، يوما بعد يوم في الاقتراب من الفضاء اللغوي المفرنس إما نكاية في الفضاء المعرب، أو تيقنا لما يمتلكه الفضاء اللغوي المفرنس من سيطرة ونفوذ رمزيين في المجتمع الجزائري.

وكيف يواصل الفضاء اللغوي المفرنس، هيمنته على الفضاءين معا، ومن ثم تشديد حصاره على المشهد اللغوي والثقافي الجزائري ككل .كل ذلك الذي ما من شأنه سوى خلخلة: الثقافة، الهوية، المدرسة، مواضع العمل،... بكلمة واحدة خلخلة المجتمع الجزائري برمته.

المراجـــع:

(1):Hassan Ramaoun : « **sur l'enseignement de l'histoire en Algérie ou de la crise identitaire à travers ou par l'école** », in Naqd, revue d'étude et de critique sociale, N°05, Alger, avril-aout1993, p 57.

(2) : طيبي غماري : " **هوية الأزمة أم أزمة الهوية**"، في مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية ،جامعة باتنة، العدد 15، الجزائر، ديسمبر2006، ص ص .71،67.

(3): Talcott Parsons : **systèmes des sociétés modernes**, traduit par Guy Mellary, Dunod, paris, 1971, pp8, 15.

(4): Omar Ahedrane : « **psychologie linguistique et psychologie technique des berbères** », in Tamazight, N°07,sans maison d'édition , Maroc, 1998, p30.

(5) : علي فهمي خشيم : **سفر العرب الأمازيغ**، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ص ص 40،1.

(6) : عمار هلال: **أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر1830-1962**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995، ص5.

(7) : عبد الرحمن السليمان: " **الازدواجيات اللسانية في المغرب: علاقات تداخلية وتنافسية**"، في الرابط الالكتروني:

(8) : ابن سحنون : **آداب المتعلمين**، بدون دار نشر، تونس، 1934، ص34.

(9) : سليمان عشراتي: **الشخصية الجزائرية: الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2007، ص86.

(10) : محمد شفيق: **الامازيغية والمسألة الثقافية**، ذكر من طرف : عزا لدين المناصرة: **المسألة الامازيغية في الجزائر والمغرب**، دار الشروق، عمان، ص113.

(11) : الخليل النحوي : **إفريقيا المسلمة: الهوية الضائعة**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1993،ص21.

(12) : عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزء الثالث، الجزائر،1995، ص480.

(13) : المرجع نفسه، ص 465.

(14) : أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثامن، لبنان، 1998، ص16.

(15): Gilbert grand guillaume : « **Etre Algérien chez soi et hors de soi** », in intersignes, N°10, sans pays d'édition, printemps 1995, p p79, 88.

(16): Khaoula Taleb el Ibrahimi : **les algériens et leurs langues**, édition el hikma, Alger, 1997, pp 36,38.

(17):Op-cite : pp36, 38.

(18) :Joseph **Desparmet** : « La **réaction** linguistique en **Algérie**», In Bulletin de la société géographique d'Alger et de l'Afrique du nord, N°36, 1931, pp19, 20.

(19) : Op-cite : pp02, 10.

(20) : جمال معتوق: **علم الاجتماع في الجزائر من النشأة إلى يومنا هذا**، بدون دار نشر، الجزائر، 2006، ص ص 54،44.

(21): Salem chaker :

(22) : عمار هلال: المرجع السابق، ص 117.

(23) : عبد القادر حلوش: **سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر**، دار الأمة، الجزائر، 1999، ص 86.

(24):Mostapha Lachref : **« Les problèmes de l'enseignement et de l'éducation»**, In journal d'el Moujahid, Alger, 09/11aout 1977.

(25): Fanny Colonna : **Instituteurs Algériens 1883-1939**, office des publications universitaires, Alger, 1975, pp112, 116.

(26): D. Dufour : **« les trois refoulements du développement algérien»**, In peuples méditerranéens, N°, 1978, p157.

(27): Khaoula Taleb el Ibrahimi : Op-cite : pp176, 210.
(28):Op-cite : p176.
(29): Op-cite : p175.
(30): Foued Larroussi : « Glottopolitique, idéologies linguistiques et Etat-nation au Maghreb », in Golottopol ; revue de sociolinguistique en ligne, n°01 paru le 01 janvier 2003, éditée par l'université de Rouen, France, p145.
(31) : Op-cite : p145.
(32): Khaoula Taleb el Ibrahimi : Op-cite : p 39.
(33) : El mounji Sayadi : « le bureau de coordination de l'arabisation », thèse de doctorat d'état, présentée auprès de paris III, 1976, pp 34,35.
(34) : Georges Mounin : L'Algérie, le cavalier bleu, Paris, 2003, p61.
(35) : Gilbert Grand guillaume : **Arabisation et politique linguistique**, Maisonneuve et larose, paris, 1983,p81.
(36) : عبد الناصر جابي: "**حرب المواقع بين النخب في الجزائر**"، جريدة الفجر، الجزائر، 2009.01.